حول خُلُقه العظيم

صلى الله عليه وآله وسلم

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم)
من الصفحة ١٨٥ حتى الصفحة ١٩٥

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناءً على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

حول خلقه العظيم ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . ن . والقلَمِ وَما يَسطُرون . ما أَنتَ بنعمةِ ربِّكَ بمجنون . وإنَّ لك لأجراً غيرَ ممنُون . وَإنَّكَ لعَلى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾ .

أقسمَ الله تعالى بنون ، وهو المدد الإلَهي الفيَّاض ، الذي منه استمداد القلم الأعلى المستفيض ، وهو أوَّل ما خلق الله تعالى ، كما ورد في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أوَّل ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتُبْ . قال : يا ربِّ وما أَكتبُ ؟ فقال : اكتُبْ ما هو كائن إلى يوم القيامة . . » الحديث .

ثمَّ أقسم سبحانه بجميع ما تسطره الملائكة وما يسطره المسطِّرون : ما أَنت يا محمد ﷺ بفضل نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة بمجنون ، لأنَّ مواقف رسالتك ودعوتك الحكيمة ، وشريعتك المستقيمة ، هي في أعلى درجة العلم والحكمة ، فكيف يُتصوَّر هذا ويلتقي مع قولهم فيك مجنون ؟ ! بل المجنون هو الذي يتَّهم صاحبَ العلم والحكمة والفهم بالجنون !

﴿ وإنَّ لك ﴾ يا رسول الله على هذا التحمُّل والصبر على أذاهم بالقول والفعل ﴿ لأجراً غيرَ ممنون ﴾ أي : غير مقطوع .

﴿ وإنك ﴾ يا رسول الله في الأخلاق السامية التي علوت قِمتها ، وانتهيتَ إلى ذروتها ، إنك حقاً ﴿ لعلى خُلُقٍ عظيم ﴾ .

فهو ﷺ عظيم في كل ناحية من نواحي الأخلاق الكاملة ، فهو عظيم ﷺ في حلمه وسماحته ، عظيم في كرمه وسخائه ، عظيمٌ في شجاعته ، عظيم في تواضعه ، عظيمٌ في كريم عشرته ، عظيم في حيائه ، عظيم في أدبه ، عظيم في رحمته ورأفته ، عظيم في سائر أخلاقه ﷺ !

وكيف لا يكون صاحبَ الخلق العظيم وقد تخلَّقَ بالقرآن العظيم ! كما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلتْ عن خُلُق رسول الله ﷺ ؟ فقالت : (كان خُلُقه القرآن : يغضب لغضبه ، ويرضى لرضاه) . رواه مسلم وأبو داود .

وروى ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلتْ عن خُلُق رسول الله ﷺ ؟ فقالت : (كان أحسنَ الناسِ خُلُقاً ، كان خلقُه القرآن : يرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، لم يكن فاحشاً ولا مُتَفحِّشاً ، ولا صَخَّاباً في الأسواق ، وَلا يجْزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح) .

ثمَّ قالت : إقرأ : ﴿ قد أَفلحَ المؤمنون . . ﴾ إلى العشر الآيات ، فقرأ السائل ، فقالت : (هكذا كان خلقه ﷺ) .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما كان أحدٌ أَحسنَ خُلُقاً من رسول الله ﷺ ما دعاه أحدٌ من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال : « لبَّيك » فلذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وَإنك لعلى خُلُقٍ عظيم ﴾[1] .

وعن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أن رجلاً نادى النبي ﷺ ثلاثاً ، كلُّ ذلك يردُّ عليه : « لبَّيكَ لبَّيكَ »[2] .

---

(١) رواه ابن مردويه وأبو نعيم بسند ضعيف . اهـ من (شرح الزرقاني) ٤ : ٢٤٥

(٢) قال في (مجمع الزوائد) : رواه أبو يعلى في (الكبير) عن شيخه جبارة بن المغلس ، وثقه ابن نمير ، وضعفه الجمهور ، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح . اهـ ٩ : ٢٠

سيدنا محمد ﷺ
هو المثل الأكمل في الخَلْق والخُلُق

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلُقاً) .

فهو ﷺ أجمل خلق الله تعالى خَلْقاً ، وأكملهم خُلُقاً ، بل هو فيَّاض المكارم والكمالات على العالم .

ففي (مسند) أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ لأُتمِّمَ صالحَ الأخلاق » .

وروى الإمام مالك في الموطأ بلاغاً أنه ﷺ قال : « بُعِثتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاق » .

قال الإمام أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه : وإنما كان خلُقُه عظيماً لأنه لم يكن له ﷺ هِمَّةٌ سوى الله تعالى .

فقد جمع ﷺ مكارم الأخلاق التي جاءت بها الأنبياء قبله ، وجاء بها كلِّها ، وزادهم كمالاً على الكمال ، وجمالاً فوق جمال .

ولقد أثنى الله تعالى على حبيبه سيدنا محمد ﷺ بعظيم خُلقه ، وكمال أدبه وفضله ، في التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهية ، كما أثنى عليه

ومدحه بعظيم خُلُقه ، وكمال أدبه وفضله ، في القرآن العظيم .

روى البخاري عن عطاء بن يسار قال : لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما ، فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة .

فقال : (أجلْ إنه ﷺ لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن :

يا أَيُّها النبيُّ إنَّا أَرسلناكَ شاهداً ومبشِّراً ونذيراً ، وحِرْزاً للأمِّيِّين ، أنت عبدي ورسولي ، سمَّيتُك المتوكِّل ، ليس بفظٍّ ولا غَليظٍ ، ولا صَخَّاب[1] بالأسواق ، ولا يدفع السيئةَ بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضَه الله تعالى حتى يُقيمَ به الملَّة العوجاء ، بأنْ يقولوا : لا إله إلاَّ الله ، ويفتحَ به أعيُناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وَقُلوباً غُلْفاً[2]) .

وعن وهب بن منبِّه : أوحى الله تعالى إلى نبيٍّ من بني إسرائيل ، يقال له شَعْياء ، أنْ قُم في بني إسرائيل فإني سأطلق لسانك بوحي ، فقام فقال :

(يا سماء اسمعي ، ويا أرض أنْصِتي ، فإن الله تعالى يريد أن يقضي شأناً ، ويدبِّر أمراً ، وهو مُنفِّذه :

إنَّه يريد أن يبعث أُميِّاً من الأُمِّيِّين ، ليس بِفظٍّ ولا غَليظٍ ، ولا صخَّابٍ في الأسواق .

---

(١) الصخب والسخب : الصياح واضطراب الأصوات للخصام .

(٢) أي : يفتح قلوباً مغشاة مغطاة بظلمتها ، فيفتحها بنور الإيمان الذي جاء به ﷺ .

لو يَمُر على السراج لم يطفئه من سكينتِه ، ولو يمشي على القَصَب واليابس لم يُسمَع من تحت قدميه .

أبعثه بشيراً ونذيراً ، لا يقول الخنا[1] ، أفتحُ به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقُلوباً غُلفاً .

وأُسدِّده بكلِّ أمر جميل ، وأَهَبُ له كلَّ خُلُقٍ كريم .

وأجعل السكينةَ لباسَه ، والبِرَّ شعارَه ، والتقوى ضميرَه ، والحكمةَ منطقَه ، والصدقَ والوفاء طبيعتَه ، والعفوَ والمعروفَ خُلُقَه ، والحَقَّ شريعتَه ، والعدلَ سيرتَه ، والهدى إمامَه ، والإسلامَ ملَّتَه ، وأحمد اسمَه .

وأُعَرِّفُ به بعد النكرة ، وأُكَثِّرُ به بعد القلَّة ، وأُغْني به بعد العَيْلَة ، وأجمعُ به بعد الفُرقة ، وأُؤلِّف به بين أمم متفرقة ، وقلوبٍ مختلفَة ، وأهواءٍ مشتَّتة ، وأستنقذ به فِئاماً من الناس عظيماً من الهلَكَة .

وأجعل أُمَّتَه خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس : يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، موحِّدين مؤمِنين ، مخْلصين ، مصدِّقين بما جاءت به الرسُل[2]) .

---

(١) الخنا : هو الفحش في القول .

(٢) أورده الحافظ ابن كثير في (تفسيره) ، وعزاه لابن أبي حاتم ، وأورده القسطلاني في (المواهب) وعزاه لابن إسحاق .

كمال لطفه ولين عريكته ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ فبِما رحمةٍ منَ الله لنْتَ لهُم ولوْ كنتَ فظّاً غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا منْ حَولِك ﴾ الآية .

كان ﷺ ليِّن الجانب ، سهلَ الخُلُق ، حسنَ المعاشرة مع الأهل والأصحاب وسائر الناس ، يعطي جليسَه حظاً كبيراً من الانبساط والملاطفة وحسن المقابلة .

روى الترمذي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه كان إذا وصف رسُول الله ﷺ يقول : (أجود الناس صدراً ، وأصدقهم لهجةً ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عِشْرَة . .) الحديث .

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : (لم يكن النبي ﷺ فاحِشاً ولا مُتفحِّشاً ، وكان يقول : « إنَّ من خيارِكم أحاسنكم أخلاقاً ») .

ومن لطفه ﷺ أنه ما كان يقابل أحداً بما يكره :

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (لم يكن النبي ﷺ سبَّاباً ، ولا فاحشاً ، ولا لَعَّاناً ، وكان يقول لأحدِنا عند المعتَبة : « مالَهُ تَرِبَتْ جبينُه ! ») .

بل كان ﷺ أشدَّ الناس لطفاً :

روى أبو نعيم في (الدلائل) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ أشدَّ النّاسِ لطفاً ، والله ما كان يمتنعُ في غداةٍ باردةٍ من عبدٍ ولا أمَة تأتيه بالماء ، فيغسل وجهه ﷺ بالماءِ وذراعيه .

وما سأله سائلٌ قط إلاَّ أصغى إليه ، فلا ينصرفُ ﷺ حتى يكون هو ـ أي : السائل ـ الذي ينصرف عنه .

وما تناول أحدٌ يده قطُّ إلاَّ ناوله إيّاها ، فلا ينزِعُ ﷺ يدَه حتى يكونَ الرجل هو الذي ينزعها منه) .

انبساطه ﷺ مع الأهل وذوي القربى

روى مسلم في (صحيحه) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : استأذن عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وعنده نساء [1] من قريش يكلِّمْنَه ويستكثرنَه [2] ، عاليةً أصواتُهنَّ ـ فلمَّا استأذنَ عمر قُمْن يبتدِرْنَ الحجاب [3] ، فأذن له رسُول الله ﷺ فدخل ، ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر : أضحكَ الله سنك يا رسول الله [4] ؟ .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : أي : نسوة من أزواجه ﷺ ، ويحتمل أن يكون معهن غيرهن ـ أي : من أقاربه المحارم .

(٢) قال الإمام النووي في شرحه : قال العلماء : معنى يستكثرنه : يطلبن كثيراً من كلامه وجوابه بحوائجهن وفتاويهن . وقوله : (عالية أصواتهن) قال القاضي عياض : يحتمل أن هذا قبل النهي عن رفع الصوت فوق صوته ﷺ ، ويحتمل أن علو أصواتهن إنما كان باجتماعهن ، لا أن كل واحدة بانفرادها صوتها أعلى من صوته ﷺ . اهـ .

(٣) أي : لأن عمر هو بالنسبة إليهن أجنبي ، فيجب الاحتجاب منه ، وفي هذا دليل مشروعية حجاب المرأة بالنسبة للأجنبي عنها حتى الوجه ؛ فإنه يجب ستره أيضاً .

(٤) أي : أدام الله فرحك الموجب لبروز سنك وظهور نورك ، ولكن لا بد له من =

فقال ﷺ : « عجبتُ من هؤلاءِ اللَّاتي كنَّ عندي ، فلمّا سمعْنَ صوتك ابتدرن الحجاب » .

فقال عمر : فأنت يا رسول الله أحَقُّ أَنْ يهَبْنَ ، ثم قال عمر : أيْ عَدُوَّاتِ أنفُسهِنَّ أَتَهَبْنَني ولا تَهبنَ رسول الله ﷺ ؟!

قلن : نعم أنت أَغلظُ وأَفَظُّ [1] .

فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ما لَقيَكَ الشيطانُ قطُّ سالِكاً فَجّاً إلَّا وسلكَ فَجّاً غيرَ فَجِّك » [2] .

كريم عشرته وحسن معاملته ﷺ مع زوجاته وسائر أهله

كان رسول الله ﷺ كريمَ العِشْرة مع زوجاتِه وسائر أهله ، يلاطفُهنَّ ويمازحُهنَّ ، ويعاملُهنَّ بالودِّ والإحسان .

روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالتْ : قال رسول الله ﷺ : « خيرُكمْ خيركُم لأهلِه ، وأنا خيركُم لأهلي » وزاد ابن عساكر في روايته : « ما أَكْرَمَ النِّساءَ إلَّا كَريم ، ولا أَهانهُنَّ إلَّا لَئيم » .

= سبب ، وظهور أمر عجب ، فأطلعني عليه ، وشرفني بالإشارة إليه . اهـ من (المرقاة) .

(١) أي : أنت يا عمر كثير الغلظة والفظاظة ، بخلافه ﷺ ، فإنه لين الجانب كثير الرفق . قال الإمام النووي : قال العلماء : وليست لفظة (أفعل) هنا للمفاضلة ، بل هي بمعنى فظ غليظ . اهـ .

(٢) الفج : هو الطريق الواسع ، ويطلق على المكان بين الجبلين .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ مِن أَكمَلِ المؤمنين إيماناً أحسنَهم خُلُقاً ، وألطفهم بأهلِه » رواه الترمذي .

وروى الحاكم ـ وقال صحيح الإسناد ـ عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال : « خيرُكم خيرُكم للنساء » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكملُ المؤمنينَ إيماناً : أحسنُهم خُلُقاً ، وخيارُكُمْ خياركم لنسائهم » رواه الترمذي وقال : حسنٌ صحيح .

وروى ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلت : كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيتِه ؟

فقالت : (كان ألينَ الناس ، بسَّاماً ضحّاكاً ، لم يُرَ قَطُّ مادّاً رجليه بين أصحابِه ﷺ) ـ وذلك لعظيمِ أدبِه وكمالِ وقاره ـ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجتُ مع رسول الله ﷺ في بعضِ أسفاره وأنا جارية ـ أي : حديثة السن ـ لم أحمِل اللحم ولم أَبْدُن ، فقال للناس : « تقدَّموا » فتقدَّموا .

ثم قال لعائشة رضي الله عنها : « تعاليْ حتى أُسابقَك » فسابقْتُه ﷺ فسبقْته .

فسكت عني ، حتى حملتُ اللحم وبَدُنْتُ وسمنْتُ ، فخرجتُ معه ﷺ في بعض أسفاره ، فقال ﷺ : « تقدَّموا » فتقدَّموا ؛ ثم قال : « تعاليْ أُسابِقْكِ » .

قالت عائشة رضي الله عنها : فسبقني ، فجعل يضحك ﷺ ويقول : « هذه بتلك »[1] رواه أبو داود وأحمد .

وكان ﷺ يعاونُ أهلَه في الأمور البيتيّة :

روى البخاري عن الأسود قال : سألتُ عائشة رضي الله عنها : ما كان النبي يصنع في أهله ؟

فقالت : كان في مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة .

وفي هذا تنبيه للأمة أن يسيروا على هذا الكمال ، ولا يكونوا من جبابرة الرجال ، خاصة مع الأهل والعيال .

ولقد أوصى رسول الله ﷺ بالنساءِ خيراً في مناسبات متعددة ، وفي مجتمعات خاصة وعامة .

ففي (الصَّحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال : « استوصوا بالنساء . . » الحديث .

وفي (سنن الترمذي) وابن ماجه أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم حجة الوداع : « ألا فاستوصوا بالنساء خيراً . . » الحديث .

---

(١) يعني أني سبقتك في هذه المرة الثانية ، في مقابل سبقتك تلك المرة الأولى ، وأراد بذلك أن لا تحزن .